انحطاط البلاد

واسبابهُ

كتب الدكتور فليكس ريتول مقالة في المجلة العلمية الفرنسوية التي تصدر في باريس ذهب فيها الى ان سبب انحطاط بعض البلاد قلة سكانها وغاباتها وازدياد الحمّى الملارية فيها وقد بحث في هذه الاسباب وعلاقتها بعضها ببعض فقال ان هذه العلاقة لا تدرك الاَّ اذا بحثنا في جيولوجية البلاد وغاباتها وسير الطبّ فيها

بلاد اليونان

خذ بلاد اليونان مثلاً فقد كانت في زمان عظمتها مخصبة كثيرة الغابات والحراج مزدحمة بالسكان والصحة العامة فيها على ما يرام وقدَّر المؤرخون عدد سكانها حينئذٍ بثمانية ملايين نسمة على اقل تقدير · وفي زمان الفتح الروماني اي بعد ذلك العهد بقرنين لم تستطع بلاد اليونان ان تجنّد من سكانها اكثر من ثلاثة آلاف رجل شاكي السلاح في رواية فلوطرخس · وقدر بوليبيوس ثمن الاملاك المقررة في شبه جزيرة بلوبونيز (المورة) باقل من ستة آلاف وزنة (نحو مليون ونصف من الجنيهات) · وثمن عقارات اثينا من ثابتة ومنتقلة يبلغ ٥٧٥٠ وزنة (نحو مليون وربع من الجنيهات)

ويعزو المؤرخون قلة السكان في بلاد اليونان الى انفراد مهاجرة البالغين منها · فانهم منذ القرن الرابع قبل المسيح ما فتئوا يغادرون البلاد زرافات ليتجندوا بالاجرة في البلاد الاجنبية كالمرتزقة · ثم جاءت فتوح الاسكندر فاشتدّ سيل المهاجرة حتى بلغ رياهُ وصدر اهل اليونان أشتاتاً وتفرقوا على وجه اسيا

وربما كان لقلة المواليد يد في ذلك ولكن معلوماتنا عن هذا الامر ضئيلة لا تشفع غلة الباحث · ولا يصح الاستشهاد بقلة عدد السبرطيين الذين لم يزيدوا على بضع مئين في عهد الفتح الروماني اذ المراد بهاتهِ المئين طبقة النبلاء ولا نعلم شيئاً عن العامة — هل تطرق النقص الى صفوفهم ايضاً ام لا

ودامت المهاجرة وقلة المواليد زماناً ليس بطويل · ولو دام البلاد خصبها لسدّت ما طرأ عليها من النقص لما جعلت المواليد تزداد واخذ مدّ المهاجرة الى البلاد يطغو وجزر

المهاجرة منها يحصر . ولكن نقص السكان دام لزوال غاباتها من جهة وصيرورتها مباءة للامراض من جهة اخرى فقد ذكر سترابون ان الجبال التي ترى من الساحل باتت جرداء في عصره وابان المستر روز الانكليزي حديثاً ان الملاريا كانت في ذلك العصر نفسهِ تفتك فتكاً ذريعاً بسكان السهول والاودية

وقد كان زوال الغابات نتيجة قلة السكان . ذلك بان قلة الايدي العاملة في البلاد افضت الى اهمال زرع الارض وتربية الماشية فاضطر اهل السواحل الى التجاع المراعي لقطعانهم في الجبال . ولو جروا في رعاية مواشيهم على قانون ما آل الامر الى ما آل اليهِ من إصارة الجبال قفراء جرداء ولكن طمع الرعاة وجهلهم افضيا الى ازدحام المراعي بالمواشي فكانت تأكل النباتات حتى جذورها وتدوسها بارجلها فتجوز عليها فساءت حالة المراعي سنة فسنة واضطر الرعاة لذلك الى الايغال في الجبال وطلب الكلاء من الغابات فكانت الماشية ترعى الشجيرات التي في غابات المستقبل . وعلى مدى الزمان شاخت الاشجار الكبيرة وهرمت وكثيراً ما كان الرعاة يتجاوزون عليها باضرام النار فيها . ولما لم يكن لها خلف يقوم مقامها لزوال الاباء قبل الآباء اخذ الخراب يتزل بالجبال وطلب انحلال من الغابات فكانت الماشية ترعى الشجيرات التي في غابات المستقبل . وعلى مدى الزمان شاخت الاشجار الكبيرة وهرمت وكثيراً ما كان الرعاة يتجاوزون عليها باضرام النار فيها . ولما لم يكن لها خلف يقوم مقامها لزوال الاباء قبل الآباء اخذ الخراب يتزل بالجبال وطلب انحلال من الغابات فكانت الامطار تهطل عليها ولا تبقى فيها خلوها من الاشجار بل تنحدر على سفوحها سيولاً تحمل في طياتها التراب وما يكنهُ من اسباب الماء والزكاء

وبزوال الشجر جعلت الملاريا تنمو وتثري . وقد ذهب المستر روز الى ان بعوض الانوفيل (الناقل لمكروب الملاريا) ليس وطنياً في اليونان بل غريب نزح اليها من بلاد اجنبية رجح انها مصر . ولكن المسيو كراديناس أبان بالبرهان ان حمى المستنقعات (الحمى الملارية) وجدت في بلاد اليونان من قديم الزمان . وكانت مساحة البلاد المصابة بها في بادىء الامر صغيرة ثم جعلت تتسع بزوال الاشجار وصيرورة مكانها مستنقعات يولد فيها مكروب الملاريا ويعيش ويموت

اما بلاد اليونان الحديثة المعاصرة لنا فتوسط المواليد فيها عالٍ ولكنها ضيقة باهلها لان الخراب القديم واستئصال الغابات من البلاد لا يزالان على عهدهما الاول فلذلك ترى السكان يتزحون منها جماعات طلباً للرزق خارجها . وفي كل صيف يشتد فتك الملاريا بالسكان ولا يسلم منها الا اهل الجزر اليونانية التي لا تزال غنية بالغابات وهي نموذج حسن لما كانت بلاد اليونان عليهِ في العصور الخوالي

ايطاليا

بين الاسباب الكثيرة التي افضت الى سقوط البلاد الرومانية سبب لا يختلف في جوهرهِ عن الذي افضى الى سقوط بلاد اليونان القديمة قبلها . فانهُ بعد الفتوحات الرومانية جعلت رومية عاصمة السلطنة تزداد غنًى وزهاء مما شاق اليها اهل القرى فاخذوا يؤمونها افواجًا حتى كادت الاريافُ تخلو منهم فوضع الاعيانُ ايديهم عليها واسسوا فيها نظام حكمهم الاقطاعي الجائر . واقلة الايدي العاملة في الارض نشأت رعاية الماشية وازدهت حتى قال احد الكتبة « ان رعاية القطعان حرفة يدفع جوبتر جميع نفقاتها » . وعلى اثر ذلك اهمل نظام الري القديم في البلاد فانسدت الترع ثم نسيت اوتنوسيت فلم يذكرها كاتب لاتيني فيما كتب والف . وكان ذلك مبدأ المستنقعات والاراضي الغامرة الكثيرة البعوض فلم ينصرم القرن الاول المسيحي حتى كانت الملاريا تفتك بالسكان اشد فتك

فلم تكن الحروب ولا الاوبئة سبب خلوّ البلاد من اهلها كما زعم قوم . اذ مهما يبلغ جهد العدوّ في الحرب فلا يزيد على اتلاف المواسم وتخريب المزارع فاذا عقد الصلح وعادت المياه الى مجاريها عاد الفلاحون الى اعمالهم العادية من حرث وزرع ولا يتركون حقولهم الخصبة الاَّ اذا تغيرت عقولهم واميالهم . وقد ذكر التاريخ شواهد كثيرة على عود الفلاح الى حرث ارضهِ رغم ما يلقى من المصاعب والعقبات اذا كان متشبثًا بها مفتونًا بحبها . فانهُ لما فتح العرب بلاد الجزائر غمرت المياه بقعًا كثيرة من سهولها فتحولت مستنقعات وبؤرًا للحمّى ثم جاء الفرنسويون فانتشر فلاحوهم في طول البلاد وعرضها يصلحون ما افسد الاهمال فمات كثيرون منهم بالحمّى ولكن الباقين لم يقنطوا بل واصلوا العمل والكد فامتصت الزروع المياه ولم يمضِ الاَّ القليل حتى عادت تلك المستنقعات حقولاً زراعية غاية ملائمة للصحة . وعليهِ ترى انهُ لم يمل بالفلاح الروماني عن ارضهِ عقمها او عدم ملاءمتها للصحة بل فتور حبهِ لها

اما ايطاليا فتنقص باهلها الآن لان عائلاتها كبيرة ومعهول كبانيا وابوليا وتسكانا الخصبة التي كانت في عهد رومية القديمة مراعي لمواشي تحولت الآن مزارع للحرث والزرع ولكن البقاع التي تركت قديمًا للملاريا تميث فيها لا تزال حتى الآن مهجورة مضرة بالصحة لا تنفع الاَّ لرعاية الماشية

اسبانيا

وما قيل في ايطاليا يقال في اسبانيا فان من اهم الاسباب التي آلت الى سقوطها خلوّها من اهلها بالهاجرة ونقص مواليدها ولاسيما بعد اكتشاف اميركا وتحوّل الانظار اليها بما حوت من غابات واسعة ومناجم تكاد تفيض ماساً وتبراً فأمّها اهل القرن السادس عشر واقام معظمهم فيها . وقد كانت املاك اسبانيا في اوربا ممتدة من جزيرة صقلية الى ضفاف البحر البلطيك ومشتملة على امم وشعوب يختلفون كل الاختلاف عن الامة الحاكمة في اجناسهم فلم يكن لاسبانيا غنى عن الرجال لحفظ زمام الحكم في يدها فانتدبت لذلك زهرة شبانها ونظمتهم في سلك جنديتها واوفدتهم الى هنا وهناك . والذين بقوا في البلاد اما انهم انتظموا في الطغمات الدينية التي تحرم الزواج على اصحابها وكثير ما هي واما انهم تزوجوا فوقعت عليهم اعباء الادارة الداخلية ولكنهم لم يستطيعوا سدّ ما طرأ على البلاد من النقص بالهاجرة وبعث البعوث الى البلاد التي تحت سلطتها وذلك لانهم عمدوا الى حصر نسلهم بتقليل مواليدهم . فلم يجيء القرن السابع عشر حتى كان الانحطاط قد بلغ ادنى دركاته

فخلت رعاية الماشية محلّ زرع الارض كما في بلاد اليونان وايطاليا وربّى اصحاب قشطيلة قطعاناً كبيرة من غنم المرينوس فعادت عليهم باظهر الوافر اذ كان صوف الخروف الواحد يباع عند جزه كل سنة بما قيمتهُ ٤٠ غرشاً . ونال كبار الرعاة امتيازات فاحشة من الحكومة فكانت قطعانهم ترعى في البلاد صيفاً وفي الوهاد شتاء واعطيت حق المرور والشرب اينما كانت . ونهي الفلاحون عن اقامة السياجات والحواجز فالتهمت القطعان نبت البلاد حبوبها وكرمها وزيتونها وباتت قشطيلة قفراً بلقعاً وتحولت انهارها سيولاً جارفة وعمّ الخراب وسادت المجاعة حتى قال احد كتبتهم في وصف هذه الحالة ان الطائر اذا اراد المرور بتلك البلاد حمل معهُ زادهُ من حبّ وماء لئلاّ يهلك جوعاً وعطشاً . وهكذا كان نصيب الاندلس والاراغون بعد ما كانت مزدحمة بالسكان . اما المقاطعات الشمالية فلم ينلها ما نال الجنوبية بل حافظت على بعض نعمتها لبعدها عن كبار المالكين ووقوعها في حوزة صغارهم . على ان الملاريا لم تظهر في قشطيلة لانها صعيد لا يعيش فيهِ بعوض الملاريا (بعوض الانوفيل) بل اقتصر فتكها على بعض سهول الاندلس المحرولة بانخفاضها ورطوبتها